سهاد ظاهر- ناشف*

الاعتقال الإداري للجثامين الفلسطينية: تعليق الموت وتجميده**

تسعى هذه الدراسة لتحليل وتفكيك بَيْنية*** جثمان الفلسطيني|ة المعتقل|ة في معتقلات الموت الإسرائيلية، أو المثاوي الموقتة المعروفة باسم مقابر الأرقام السرية، أو في ثلاجات الأَسْر الإسرائيلية، وتركز على الفترة التي تلي إعلان الموت|القتل، والتي إمّا تنتهي بوصول جسد الميت|ة الفلسطيني|ة إلى مثواه|ها الأخير، وإمّا لا تنتهي وتُعلّق|تُجمّد إلى أجل غير مسمى في معتقلات جثامين الفلسطينيين|ات الإسرائيلية، من خلال توثيق عدد من حالات الجثامين المعتقلة، وتوثيق الخطابين الإسرائيلي والفلسطيني.

هذه الدراسة تحلل وتفكك بَيْنية الموت في السياق الفلسطيني، وتحولات جسد الميت|ة وانتقالاته بين مختلف التصنيفات والتعريفات السياسية ـ الاجتماعية. وهنا يجري تجاوز التحليل البنيوي الخطي المطروح في العلوم الاجتماعية الغربية لبَيْنية جسد الميت|ة بين لحظة إعلان الموت، وبين الوصول إلى المثوى الأخير (القبر)، وتُطرح قراءة لدائرية ووكالة جسد الميت|ة الاجتماعية والسياسية في السياق الفلسطيني. وممّا لا شك فيه أن احتجاز الجثامين هو وسيلة تستخدمها إسرائيل من أجل تأكيد سيادتها على الأرض وعلى جسد الفلسطيني|ة، حياً كان أو ميتاً؛ الجسد الذي تُنقش على جلده وزمنه وحيّزه الممارسات الاستعمارية الإسرائيلية، وفي الوقت ذاته، المقاومة الفلسطينية لهذه الممارسات.

---

* باحثة في علم الإنسان الثقافي والطبي.

** المواد الواردة في هذه الدراسة جزء من بحث ميداني قامت به الباحثة ضمن منحة زمالة ما بعد الدكتوراه، مقدَّمة من المجلس العربي للعلوم الاجتماعية ـ بيروت، ومؤسسة كارنيغي ـ نيويورك.

*** هذه الكلمة تعني الحالة ما بعد الموت وقبل الدفن (liminality).

يقول والد الشهيد بهاء عليّان:

> حالة من القلق والانتظار تنتابنا على مدار الأربع والعشرين ساعة يومياً، نتساءل فيها عن مصير أبنائنا الشهداء. أسئلة كثيرة تجتاحني، هل سأقبّل رأس نجلي؟ وهل سأُلبسه كفنه الذي عبّقته بالعطر الفاخر الذي يليق بمنزلته؟ تُرى هل ستزفّه الجماهير إلى مرقده الأخير الذي فُتح منذ نبأ استشهاده وما زال منتظراً أن يحتضنه؟[١]

خلفية عامة

لقد عرف التاريخ والحاضر الاستعماري في العالم كثيراً من الممارسات الاستعمارية على جسد الحي/ة والميت/ة، ولا سيما المستعمَر/ة،[٢] وهذه الممارسات هي تَجلّ للانخراط المباشر للجسد في الحقل السياسي[٣] كي يكون حيزاً لنقش السيادة واستعادتها. وبهذا، يشكل الجسد حلبة للاشتباكات ولحل النزاعات، ووسيلة لفرض السيادة على الجسد وعلى الأرض.[٤] جسد الفلسطيني/ة أيضاً منشبك في الحقل السياسي على نحو مباشر ويومي، وتُنقش على جلده ـ حياً كان أو ميتاً ـ وسائل السيطرة والممارسات الاستعمارية الإسرائيلية،[٥] إلى درجة تشكيل علاقته مع الأجساد الفلسطينية الأُخرى،[٦] ولهذا، لا يمكن فصل كينونة جسد الفلسطيني/ة ـ حياً/ة كان/ت أو ميتاً/ة ـ عن الحقل السياسي الاستعماري الذي يعيش ويموت فيه. ويبيّن آخيل أمبيمبي (Mbembe 2003) في مقالته Necropolitics كيف تقرر إسرائيل من خلال أدواتها الاستعمارية مَن يحق له العيش، ومَن يستحق الموت بين الفلسطينيين/ات، ويوضّح أن هذا القرار يقف في لب الممارسة الاستعمارية الإسرائيلية.[٧] وتضيف جوديث بتلر (Butler 2004) توضيحاً يشرح كيف أن المستعمِر/ة الإسرائيلي/ة، من خلال تعامله/ها مع الفلسطيني/ة كآخر/أُخرى، يتعامل مع موته/ها أيضاً كـ "موتِ آخَرَ"، وبهذا لا يستحق الحزن سواء على حياته/ها، و/أو على مماته/ها.[٨] وتطرح هنيدة غانم (Ghanim 2008) أهمية تجاوز مصطلح bio-power الشائع استخدامه في تحليل مأسسة الجسد وضبطه في سياق سياسات دولة القومية الحديثة، وتشير إلى أهمية تبنّي مصطلح thanatopower كبديل لتحليل التحكم الاستعماري الإسرائيلي في حياة الفلسطيني/ة، وفي فرض موته أيضاً.[٩] ومع أن بعض الأبحاث الميدانية والكتابات تطرق إلى تحليل اجتماعي وسياسي لكينونة جسد الفلسطيني/ة الحي/ة في سياقه الاستعماري،[١٠] إلاّ إن الأبحاث التي خاضت في سيرورة هذا الجسد، ميتاً/ة، أو في الممارسات الاستعمارية عليه خلال وجوده في مرحلة ما بين إعلان الموت والمثوى الأخير، هي أبحاث قليلة[١١] تركز على ممارسات موت من نوع معين وفي سياقات محددة. ويحلل إسماعيل ناشف (إسماعيل ناشف ٢٠١٥)[١٢] أنماط الموت المتنوعة في السياق الفلسطيني، بخوضه في بنية موت الفلسطيني/ة كضحية، كشهيد، و/أو استشهادي، مشيراً إلى حقيقة أن بنية الموت هي قاعدة أساسية لتشكيل حياة الفلسطيني/ة في سياقه/ها الاستعماري. إن خاصية السياق الفلسطيني تفرض تحديقاً في حياة الميت/ة الفلسطيني/ة، ذلك بأن جزءاً لا يتجزأ من دراسة المجتمع الفلسطيني هو

"دراسة أنماط الموت السائدة والمتنحية فيه."[13] ومن هنا فإن التحديق في سيرورة اعتقال جثمان الفلسطيني/ة، وتعليق/تجميد موته/ها، يعكس أنماط الاستخدام الإسرائيلي لجسد الميت/ة بغية إعادة صوغ علاقات السيادة بين إسرائيل والفلسطينيين/ات الأحياء، وهذا التحديق في المقابل، يكشف عن مواقع ومساحات مقاومة الفلسطيني/ة لهذه السيادة من خلال جسد الميت/ة ذاته.

ستبيّن هذه الدراسة المساومات وتفاوت الوكالات على الموت بين الطرفين، وفرض السيادة ومقاومتها في أثناء ممارسة اعتقال وتجميد جثمان الفلسطيني/ة. والادعاء الأساسي في هذه الدراسة هو أن جسد الميت/ة الفلسطيني/ة يتجاوز تحليل البَيْنية الخطية (linear liminality)، المتعارف عليها في العلوم الاجتماعية والمعرفة الغربية؛ فهو جسدياً وبيولوجياً عُرّف بأنه ميت، لكن الفلسطيني/ة الميت/ة يبقى/تبقى كائناً/ة وموجوداً/ة، وله/ها حياة سياسية تتحول إلى اجتماعية حين تجري إعادة جسده/ها إلى عائلته/ها من معتقلات الجثامين الإسرائيلية، أو ما يسمى قبور الأرقام السرية، وثلاجات التجميد، فيموت/تموت مرة أُخرى، وبهذا فإن بَيْنيته مزدوجة ولولبية/دائرية وليست خطية/سببية.

اعتقال الجثامين الفلسطينية

كثيراً ما استخدمت إسرائيل احتجازاً/اعتقالاً إدارياً لأكبر عدد من جثامين الفلسطينيين/ات كاستراتيجيا عسكرية من أجل المقايضة المستقبلية مع جثامين إسرائيليين/ات وقعوا أو سيقعون في يد المقاومة الفلسطينية، وبهذا كدست تحت تراب سيادتها كثيراً من الجثامين لفلسطينيين/ات حُوّلوا إلى أرقام في مقابر الأرقام. وأنا أقترح هنا استبدال التعبير احتجاز باعتقال إداري، كون جسد الميت/ة معتقلاً من دون لائحة اتهام أو محاكمة أو تهمة مثبّتة أو مدة حكم واضحة ومحددة.

ووفقاً لإحصاءات "مركز القدس للمساعدات القانونية وحقوق الإنسان"، فإن إسرائيل، ومنذ سنة ١٩٧٦، احتجزت ٢٦٨ جثماناً فلسطينياً في مقابر الأرقام، واعتقلت ١٩ جثماناً من قطاع غزة خلال العدوان الإسرائيلي في سنة ٢٠١٤،[14] و١٥ جثماناً لفلسطينيين/ات منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥.[15] أمّا "مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان" ("بيتسيلم")، فبيّن في تقرير أصدره في ١٧ شباط/فبراير الماضي أن سلطات الاحتلال لا تزال، منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥، تحتجز ٥٥ جثماناً لفلسطينيين/ات، منها ١١ جثماناً لقاصرين.[16] ويُعتقل جسد الفلسطيني/ة الميت/ة بثلاثة أنماط موت فلسطينية: جسد مَن قام/ت بعملية انتحارية/استشهادية؛ جسد مَن حاول/ت القيامَ بعملية استشهادية لكنه/ها اعتُقل/ت وأُعدم/ت ميدانياً؛ فلسطيني/ة أُعدم/ت لأنه/ها فلسطيني/ة. وتحدث أنماط الموت الثلاثة هذه على أرض تقع تحت سيادة الدولة الإسرائيلية. وقد اعترف بعض ضباط الجيش الإسرائيلي بأن هذه الوسيلة لم تعد ناجعة للضغط على الفلسطينيين/ات، وإنما تشكل عبئاً على إسرائيل أكثر من كونها استراتيجيا سياسية[17]. وجرّاء هذا العبء الناجم عن تكديس جثامين لفلسطينيين/ات، فإن إسرائيل حاولت سابقاً التخلص من مقابر الأرقام، وتسليم هذا العبء إلى السلطة الوطنية الفلسطينية، عبر إرجاع الجثامين كأرقام وكمجهولي

الهوية والأسماء وتفصيلات الاستشهاد، لكن هذه المحاولات قوبلت بالرفض من طرف السلطة الفلسطينية والأهالي، لأن ذلك يعني محو هوية وأسماء شهداء/شهيدات.[١٨] فضلاً عن ذلك، رفض الجيش الإسرائيلي الحملة الأخيرة التي بدأت في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥ لاعتقال الجثامين الفلسطينية، والتي جاءت بقرار من وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي غلعاد إردان، وتوصلت المؤسستان العسكريتان (الأمن الداخلي والجيش) إلى قرار احتجاز جثامين المقدسيين/ات فقط، الذين يتبعون سلطة وزارة الأمن الداخلي، وإعادة جثامين سكان المناطق الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية الذين يتبعون سلطة الجيش الإسرائيلي. ومن خلال هذه الممارسة والاستثناء لجسد الميت/ة المقدسي/ة، تسعى إسرائيل لتأكيد سيادتها على الأرض المقدسية وعلى حياة المقدسيين/ات، وهي بذلك أيضاً تمارس سياستها ببتر الهوية الفلسطينية وتفكيكها، عبر تقسيم الفلسطينيين/ات إلى فئات وهويات متعددة كجزء من سياسة تسهيل سيطرتها على كل فئة على حدة، والتمويه على ممارساتها الاستعمارية.[١٩]

إن اعتقال جثامين الفلسطينيين/ات هو ممارسة غير قانونية ومخالفة للاتفاقيات الدولية بشأن التعامل مع جثامين أسرى ومعتقلي الصراعات بين الدول. فالمادة ١٣٠ من اتفاقية جنيف الرابعة، والمادة ٣٤ من البروتوكول الإضافي الأول الملحق باتفاقيات جنيف، يُلزم جميع الدول بدفن المعتقلين المتوفين أو المقتولين، باحترام وبما يتلاءم مع ثقافتهم ودينهم، وتقديم البيانات اللازمة والمعلومات الوافية عنهم حين تسمح الأوضاع بذلك، وتسهيل إعادة الجثامين وما يخصهم من أمتعة شخصية إلى ذويهم.[٢٠] وهذه الممارسة تُعتبر مخالفة أيضاً لقرارات المحاكم الإسرائيلية، ومنها محكمة العدل العليا "التي اعتبرت أن مبدأ الكرامة الإنسانية ينطبق على الجثامين مثلما ينطبق على الأحياء، ويمتد ليشمل أسر الضحايا وذويهم."[٢١]

لقد ادعى الجانب الإسرائيلي أن الهدف وراء اعتقال الجثامين هو منع تحوّل الجنازات إلى تظاهرات تكريم للشهداء وإشادة بالهجمات ضد إسرائيل، ولهذا اشترط على كل عائلة ترغب في الحصول على جثمان أحد أفرادها عدم تشريحه، ودفع كفالة مالية في بعض الأحيان، وأن يكون التسليم والدفن ليلاً، وتحديد عدد المشاركين في التشييع، لكن العائلات رفضت هذه الشروط، وربما هذا أحد أسباب عدم استرجاعها جثامين أبنائها حتى اليوم، ولا سيما المقدسيين منهم. ومن خلال فرض طقوس الموت هذه، فإن إسرائيل تفرض على الفلسطيني/ة بُنية موته/ها، وتحاول أن تشكل طقوس فقدانه/ها، مؤكدة بهذا استعمارها حتى لبنية العاطفة الفلسطينية، من خلال تشكيل تشييعه وجنازته أيضاً كمُغيَّب، كميت "آخر" لا "يستحق الحزن"، على حد تعبير جوديث بتلر. وهكذا، تحاول إسرائيل موضعة الشهيد/ة في هامش حيز الموت الفلسطيني وزمنه، وليس في مركزه، كما هو متّبع في المجتمع الفلسطيني.

ونظراً إلى أن هذه الدراسة ترمي إلى تحليل سيرورة اعتقال جثامين فلسطينيين/ات، وسيرورة اعتقالهم في معتقلات الجثامين الإسرائيلية؛ معتقلات الموت المرقمة والمعروفة بمقابر الأرقام ومعتقلات التجميد أو الثلاجات الإسرائيلية، فإن التركيز كله سيكون على الفترة الواقعة بين لحظة دخول جثمان الفلسطيني/ة إلى حالة "جثمان معتقل/ة"، حتى الخروج من مرحلة تعليق/تجميد الموت والعودة إلى الموت مرة أُخرى كـ "شهيد/ة محرَّر/ة".

بَيْنية الموت

بين إعلان الموت والمثوى الأخير يكون الجسد في حالة انتقالية تتميز بالبَيْنية (liminality)، ويتحول فيها الجسد من حالة إلى حالة أُخرى، ومن تعريف إلى آخر، ومن جسد حي/ة إلى جسد ميت/ة. هنا، تُنقش على جسد الميت/ة قيم ومعايير اجتماعية وسياسية من خلال الممارسات والطقوس التي يجتازها.[٢٢] في هذه المرحلة، يكون الجسد بين ـ بين (betwixt and between):[٢٣] تحولاته خطية/سببية، ويمر بمراحل اجتماعية تبدأ بإبعاده وانفصاله عن المجتمع لأن تعريفه تغيّر فهو لم يعد حياً، وتنتهي بإعادته حين يعرَّف كميّت ليُبعَد مرة أُخرى إلى مثواه الأخير.[٢٤] وتصف ماري دوغلاس (Douglas 1966) هذه المرحلة بأنها حالة من الشذوذ والاختلاف (anomaly)، تشوش الحد الفاصل بين الحياة والموت.[٢٥] ففي هذه المرحلة البَيْنية، وبسبب ما يمر به الجسد من عمليات بيولوجية تزعج أنوف البشر الأحياء من حوله وأعينهم، يكون الجسد في حالة من النبذ الناتج من التحقير (abjection)، على حد تعبير جوليا كريستيفا (Kristeva 1982)،[٢٦] الأمر الذي يحفّز المجتمع على الإسراع في دفنه وإقصائه نهائياً.

يدّعي البعض أنه في المرحلة البَيْنية للموت، أي بين إعلان الموت والدفن، يكون الجسد مادة أكثر ممّا هو واقع اجتماعي، أو جزء من سيرورة اجتماعية، ولذلك يجب مواراته؛ إنها مفارقة أن ترى ما لا يوجد هناك، أي الشخص/الإنسان الحي الذي سكنه.[٢٧] ففي هذه المرحلة الانتقالية، يكون الجسد في حالة غموض وحياد وعدم مرئية،[٢٨] وهذه التفسيرات ـ وهي بأغلبيتها غربية ـ تلائم حالة الموت "العادي"، لا حالة موت الاستشهادي/ة الفلسطيني/ة الذي/التي يحيا/تحيا ويصبح/تصبح مرئياً/ة أكثر حين يُعلَن موته/ها أو استشهاده/ها.[٢٩] لقد تطرقت بتلر (Butler 1989) وغيرها إلى حقيقة أن الجسد عبارة عن حيز يشكله خطاب النظام الحاكم وقوته،[٣٠] وإلى أن المجتمع يتكلم من خلال الجسد المنخرط في الحقل السياسي،[٣١] ومن هنا تنبع أهمية فحص ما يحدث لجسد الفلسطيني/ة الميت/ة حين يكون/تكون في معتقلات الموت الإسرائيلية، في حالته/ها البَيْنية المجمدة المعلقة كجثمان معتقل.

سيناريوهات بَيْنية جسد الميت/ة الفلسطيني/ة

تتعدد سيناريوهات بَيْنية الموت الفلسطينية، لكن محور هذه الدراسة هو بَيْنيّتان: الأولى، تعليق الموت من خلال اعتقال الجثمان في معتقل موت مرقم (مقبرة الأرقام السرية)، والتي تطورت في الآونة الأخيرة إلى البَيْنية الثانية وهي استراتيجيا تجميد الموت والميت/ة في ثلاجات الأَسر الإسرائيلية. "إن الإفراج، إن تمّ، سيعمّق الجرح المفتوح منذ ١١ عاماً، لكنه سيغلق ملفاً مقلقاً للعائلة."[٣٢]

أ ـ السيناريو رقم ١: حياة ؛ موت ؛ جثمان معتقل في مثوى موقت ؛ إحياء موت ؛ مثوى أخير

مجدي خنفر كان حياً. استشهد خلال اشتباك مسلح مع القوات الإسرائيلية في سنة ٢٠٠٢، قَتل خلاله شرطي حدود إسرائيلياً؛ شُرِّح جثمان الشهيد مجدي في المعهد الوطني

للطب العدلي الإسرائيلي، وربما سُرق من جسده أعضاء تنقذ إسرائيليين ينتظرون مَن ينقذهم؛ وُضع في كيس؛ حُفرت حفرة ليست بعميقة في أرض مقبرة، وكُتب رقم على لوحة فوقه؛ حُوّل من اسم إلى رقم؛ بات في مثواه الموقت ـ معتقل الجثامين الفلسطينية ـ حتى ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، أي ١٢ عاماً تقريباً؛ أُعيد إحياء استشهاده وموته مرة أُخرى ليُدفن كشهيد في مقبرة مع شاهد عليه اسمه. انتقل خنفر من رقم إلى اسم، من شيء إلى ذات، من نكرة إلى بطل، من فلسطيني "لا يستحق الحزن على موته" إلى فلسطيني "شهيد يحزن عليه شعب"؛ تغيرت مواقعه السياسية والاجتماعية بتغيّر الأرض التي تحتضن جثمانه وبتغير دافنيه، وكلاء موته.

هذا هو مسار فلسطيني اعتُقل جثمانه ودُفن في مقابر الأرقام السرية التابعة لإسرائيل،[٣٣] كمثوى موقت/معلق، إلى أن جرت صفقة تبادل أعادته إلى عائلته، فأُحيي موته من جديد ليموت مرة أُخرى ويُدفن في مثواه الأخير. وفي مئات الحالات (٣٠٠ حالَة تقريباً)، توقف هذا المسار عند مرحلة الموت المعلق أو المثوى الموقت، وبقي الجثمان عشرات الأعوام معتقلاً في إحدى مقابر الأرقام الإسرائيلية، أو ما سمّيته معتقلات الجثامين الإسرائيلية المرقمة. فلكل معتقل/ة في معتقلات الموت الإسرائيلية عمرَين: عمر كإنسان/ة حي/ة حتى لحظة الموت، وعمر كإنسان/ة ميت/ة بيولوجياً، والذي يمتد بين لحظة الموت ولحظة تسليمه/ها لعائلته/ها التي تدفنه في قبر معلوم مع شاهد عليه اسمه/ها. فمثلاً، محمد فراونة الذي قام بعملية اختطاف الجندي الإسرائيلي غلعاد شاليط في ٢٥/٦/٢٠٠٦، لا يزال معتقلاً في قبر سرّي، وعمره كميّت يناهز تسعة أعوام وأربعة أشهر. تقول والدته: "ها قد عاد شاليط إلى أمه، فلماذا لم يُفرجوا عن جثة ابني؟ .... أريد أن أرى وجهه للمرة الأخيرة وأدفنه وفق عاداتنا في قبر معلوم لكي أزوره".[٣٤]

بعض الجثامين المعتقلة في مقابر الأرقام فُقدت هويته، وبات مصيره البقاء في المثوى الموقت لعشرات الأعوام الأُخرى،[٣٥] فتلك المقابر مثلما قال سالم خلّة، منسّق "الحملة الوطنية لاسترداد جثامين الشهداء المحتجَزة لدى الاحتلال الإسرائيلي":

> هي عبارة عن مدافن رملية لا يزيد عمق القبر الواحد عن ٥٠ سم، تكون القبور فيها متراصة على خط واحد، وتُحفظ الجثث بأكياس بلاستيكية يُعلّم عليها بأقلام الفولماستر رقم الشهيد واسمه .... ما جعل أسماء الشهداء عرضة للضياع وزوال الحبر بفعل العوامل الطبيعية كالرياح والأمطار. إن أسباب ضياع العديد من [هويات] الجثث هو أن الاحتلال الإسرائيلي أوكل إلى شركة *EIS* الإسرائيلية دفن الجثث، وتدّعي الشركة في الوقت الحالي أنها لا تعرف الأماكن والمواقع التي دُفنت بها الجثامين.[٣٦]

إحدى مواجهات المجتمع الفلسطيني لمعتقلات الجثامين، وأحد تجليات مقاومته لاسترجاع معتقلي/ات الموت الفلسطينيين/ات، هي "الحملة الوطنية لاسترداد جثامين الشهداء المحتجزة لدى الاحتلال الإسرائيلي" التي أسسها "مركز القدس للمساعدات القانونية وحقوق الإنسان"

في سنة ٢٠٠٨، والتي تمكنت من استرداد جثمان مشهور العاروري في سنة ٢٠١٠. وفي سنة ٢٠١٢، استردت ٩١ جثماناً، كما جرى استرداد ٣٨ جثماناً في نهاية سنة ٢٠١٣.[٣٧]

أحد تجليات مقاومة المجتمع الفلسطيني لبَيْنية الموت التي حاولت إسرائيل وتحاول فرضها، هي رفض استرجاع الجثامين من دون أسماء وهويات. فقد قال رئيس الحملة سالم خلّة، في مقابلة صحافية أُجريت معه، إن إسرائيل حاولت خلال الفترة الماضية استخراج جثامين الشهداء من مقابر الأرقام وإعادتها غير معرّفة إلى الجانب الفلسطيني، وأكد أن الجانب الفلسطيني بعائلاته ومؤسساته، أصر على إعادتها معرّفة بأسماء الشهداء وأرقام هوياتهم وأماكن وتواريخ استشهادهم. وأشار إلى حقيقة أن السلطات الإسرائيلية تحاول إغلاق هذا الملف، ذاكراً أن الجيش الإسرائيلي "يعلن أن ما بقي لديه هو ١١٩ جثماناً، بينما يؤكد توثيقنا بالحملة ٢٦٢ جثماناً فلسطينياً وعربياً."[٣٨] وإلى ذلك أضاف المحامي أندريه روزنتال قائلاً إن القبور

> لم تكن في صفوف مستوية، وإنه لم تكن هناك علامات تدل على وجودها. جرافة حفرت في عمق قليل حتى ظهرت بعض الجثامين التي وُضعت في أكياس ومُسح ما عليها من معلومات.[٣٩]

إن محاولات إسرائيل إرجاع الجثمان الفلسطيني المعتقل مجهولاً بلا هوية هي محاولة لتهميشه وإبقائه في دائرة الشيء غير المعرّف، البعيد كل البعد عن ذات معرّفة، ساعية لأن تختزله إلى جثمان مادة لا قيمة لها. هذا ما أوضحته بتلر (Butler 2004)، حين قالت إن الإسرائيلي يتعامل مع الموت الفلسطيني على أنه موت رخيص لا يستحق الحزن لأن حياته بلا قيمة ولا تستحق البكاء والرثاء.[٤٠] وهذا الأمر يتناقض كلياً مع ما تريده العائلات لأبنائها:

> بعزة وبكرامة كما استشهد، أو عن طريق صفقة مشرفة لا بطريقة الاستجداء [...]. ابني شهيد، وحيّ عند ربه سواء دُفن في مقبرة إسلامية أو في مقبرة الأرقام... لا أقبل بتسليم رفات ابني بطريقة مهينة كما في المرة السابقة حين تسلّم أهالي الشهداء رفات أبنائهم في صناديق خشبية، وبعضهم لم يتأكد ممّا إذا كان الرفات يعود لأبنائهم أم لا، والبعض الآخر وجد مواد كيماوية مع الرفات.[٤١]

إن مقاومة العائلات والمؤسسات الرغبة الإسرائيلية في تحديد شكل موت الفلسطيني/ة الشهيد/ة، والإصرار على استعادة الجثمان المعتقل كجثمان شهيد بطل لا كرقم، أو كشيء أو كنكرة، هما تَجلٍّ لمقاومة الفلسطيني/ة لسيادة إسرائيل على الجسد من خلال الجسد ذاته. هكذا يصبح جسد الفلسطيني/ة وسيلة لصوغ علاقة السيطرة والوكالة على الحياة والموت بين الجانبين، وفي هذه الحالة، يعيد الفلسطيني/ة لنفسه/ها السيادة على جسده/ها، ولا يسلمها للإسرائيلي/ة فقط. وهنا تكمن حالة تداول السيادة على جسد الميت/ة بين الفلسطيني/ة والإسرائيلي/ة. ففي كتابه "صور موت الفلسطيني" (٢٠١٥)، يبيّن إسماعيل

ناشف كيف يأخذ الفلسطيني وكالته على جسده، وينتزع حق إدارة شؤون موته من خلال فعل الاستشهاد والإضراب عن الطعام. إن بقاء الجثمان في معتقل الموت، قبر الأرقام، هو تعليق لموت صاحبه/صاحبته، فهو في مثواه الموقت في حالة تعريفية استعمارية، وحين يعاد يموت كأنه لأول مرة، وتتغير تعريفاته إلى قومية ـ وطنية فلسطينية. وبهذا، فإن بَيْنية هذا الجسد وزمنه ليست سببية/خطية، بل لولبية/دائرية فيها عودة إلى لحظة الموت الأولى من جديد، واستمرار حتى المثوى الأخير الذي يتمناه الأهالي لأبنائهم، والذي تشير إليه أم رائد الذي استشهد ابنها رائد قبل ١٣ عاماً بقولها:

> أنتظر عودة رائد وأتمنى أن يبقى له قبر في بلده.[٤٢]

لقد تطورت الاستراتيجيات الإسرائيلية في تعليق الموت الفلسطيني، واتخذت منحى جديداً خلال الهبّة الأخيرة منذ ٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥، هو تجميد الموت واعتقال الجثمان في معتقلات التجميد بدرجة حرارة منخفضة جداً تصل إلى أكثر من ٤٠ درجة تحت الصفر.

ب ـ السيناريو رقم ٢: حياة ؛ موت ؛ تجميد الموت ؛ موت حي ؛ المثوى الأخير

> تركناه في الخارج لمدة أربع وعشرين ساعة كي يذوب ولكن ذلك لم يساعد، اضطررنا إلى غسله مرتين بماء ساخن لنُذيب الثلج عنه وهذا أيضاً لم يساعدنا. لقد كان متجمداً كصخرة.[٤٣]

هذا هو مسار جثمان فلسطيني/ة اعتُقل/ت وسُجن/ت في الثلاجات الإسرائيلية كجزء من ممارسة اعتقال جثامين فلسطينيين/ات مارستها إسرائيل منذ ٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥، بقيادة وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي غلعاد إردان. وفي العديد من الحالات، وخصوصاً حالات جثامين المقدسيين، فإن هذا المسار توقف في مرحلة اعتقال الجثمان داخل معتقل الثلاجة الإسرائيلية. وكان جثمان ثائر أبو غزالة أول جثمان معتقل، وقد جُمّد موته حتى اليوم لمدة تجاوزت ٦ أشهر، وما زالت جثامين ١٥ فلسطينيّاً/ة معتقلة حتى اليوم.[٤٤]

في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥ أفرجت السلطات الإسرائيلية عن ٧ جثامين اعتُقلت خلال الهبّة الفلسطينية الأخيرة في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٥. وفي ١ كانون الثاني/يناير ٢٠١٦ تسلّم الفلسطينيون/ات ٢٣ جثماناً، جميعها من مناطق الضفة الغربية المحتلة، وحدث هذا الأمر بعد ضغوط شعبية وسلسلة إجراءات قانونية. وقبل ذلك، كانت السلطات الإسرائيلية قد اشترطت على العائلات الدفن الفوري ليلاً، وعدم التشريح، ومشاركة أعداد محدودة في التشييع، إلاّ إن الأهالي رفضوا بنْية التشييع التي حاولت القوات الإسرائيلية فرضها، وشُيعت الجثامين بجنازات "تليق بهم" مثلما قالت العائلات. وهنا أيضاً يمكننا رؤية المساومة على الوكالة على طقس الموت بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، فقد سُلّمت الجثامين مجمدة، الأمر الذي تطلّب وقتاً طويلاً لإذابتها وتشريحها من أجل الكشف

عمّا مارسته إسرائيل على جسد الفلسطيني، كما أن عدداً من الأهالي رفض استلام جثامين أولاده بحالة التجميد، وأعادها مطالباً باستلامها مذابة لا مجمدة.

يقول خالد مناصرة، والد الشهيد حسن مناصرة، والذي استلم جثمان ابنه مجمداً بعد مكوثه ستة أشهر في معتقلات التجميد الإسرائيلية، ثم أعاده إلى السلطات الإسرائيلية رافضاً استلامه كقالب ثلج:

> كشفتُ الغطاء عن وجهه، وضعت يدي على جبينه، فكان الجبين جليداً. كان جثمانه بصورة يُرثى لها، لم أتمالك نفسي، أعدتُ الغطاء عليه، صرخت بملء فمي عن قهر يسكن في جوفي منذ ستة أشهر. لم أسمح لأمه أن تراه حتى لا تصاب بصدمة.[٤٥]

إن محاولات إسرائيل إرجاع جثمان الميت/ة مجمداً هو تعبير عن رغبتها في إبقائه كشيء، ورفض العائلات استلام الجثامين مجمدة هو تعبير عن الرغبة في موت لأبنائهم له ملامح موتٍ حي. ففي عدة حالات يرفض الأهالي استلام أبنائهم كشيء أو غرض مجمد، ويوافقون على الاستلام حين يكون يشبه نفسه، أي ميتاً كما لو لم يُدخل إلى الثلاجات، وهو ما حدث مع جثمان حسن مناصرة الذي رفض والده استلامه مجمداً لأن "الاحتلال لم يلتزم بشرط إعادة الجثمان غير مجمد."[٤٦]

في عدد من الحالات التي استلمت فيها العائلات الجثمان، فضّلت الدفن على الانتظار. لقد تعددت الشهادات حيال الجثامين المجمدة:

> يبدو أنهم يقومون بإلقائهم في الثلاجة بعد استشهادهم دون أي مراعاة للوضعية التي يكونون عليها، على الوجه أو على الرأس. الاحتلال لا يحترم حتى طريقة وضع الجثمان في الثلاجة.[٤٧]

> يُستشهد ثم يضعونه في كيس أسود في ثلاجة قد تكون فيها جثث أُخرى. يُلقون الجثث دون ترتيب ....اضطررنا إلى رفع جثمان مازن بمساعدة عشرين شخصاً، كونه كان متجمداً بشكل تام... اضطررتُ إلى إعادة تخييط جزء من وجهه ليتمكن أفراد عائلته من توديعه.[٤٨]

> خدّا أحد الشباب كانا منقّطين بثلج أبيض. شعره الأسود كان رطباً وملتصقاً بجبينه.[٤٩]

إن تجميد الجثامين هو عبارة عن تشكيل لزمن ـ حيِّز الجثمان، وهو إيقاف لزمن ـ حيّز الموت، ومنع الجسد من أن يموت، أي من أن يتحلل ويتعفن كما يحدث بيولوجياً بعد الموت. تجميد زمن الموت هو تشكيل لحيز الجسد الخارجي والداخلي، ولهذا لا فصل بين الزمن والحيز، بل إنهما وحدة تحليلية واحدة، وهذا التجميد يحمل ثنائية التقدم بزمن الموت، أي يزداد عدد أيام وجود الجسد كجسد لميت/ة، لكن ليس ثمة تقدّم في زمن الموت فعلياً، أي لا

تغيرات بيولوجية تحدث، فالبَيْنية متحركة/مجمدة في اللحظة ذاتها. إن تجميد الجسد هو عبارة عن إخراس الجسد كي لا يسرد ما حل به من خلال علاماته، وحين تجري إعادة الجسد إلى العائلة، يذوب الجسد ويبدأ بالموت "الحقيقي"، أي بالمرور بالتطورات الفيزيولوجية المتوقعة منه، فيبدأ بسيرورة موت اجتماعية كما "تليق به" كشهيد/ة، أي يُجمّد زمن موته ويعود ليموت من جديد. إذاً في حالة التجميد نرى لولبية بَيْنية الموت، وهنا يمكننا أن نخلص إلى أن مداخلات ماري دوغلاس، وجوليا كريستيفا، وفان جينيب، وفيكتور تيرنر، وجميع المنظرين الغربيين حيال بَيْنية الموت الخطية الأحادية والسببية، لا تتلاءم بتاتاً مع حالة اعتقال جثامين فلسطينيين/ات، لأننا بصدد بَيْنية مجمدة تتحرك من دون أن تتطور وتتحول، وإذا تطورت فإنها تعيد الموت إلى نقطة البداية كي يسير في مسار الموت المتوقع، وبهذا فهي لولبية/دائرية لا خطية.

> هذا نوع من الابتزاز لذوي الشهداء من أجل الضغط عليهم. هو نوع من العقاب الجماعي والإمعان في تعذيب الأهالي.[٥٠]

إن طول مدة هذه البَيْنية ومدة اعتقال/احتجاز الجثامين، يثير القلق لدى أفراد العائلة لعدم معرفتهم الأوضاع المحفوظة فيها، أي أوضاع اعتقالها، وبسبب خوفهم من أن تُسرق أعضاء من أجسامهم، أو أن يُدفنوا في مقابر الأرقام السرية. فسرقة الأعضاء من جثمان فلسطيني/ة ليست جديدة على المؤسسة العسكرية والطبية العدلية الإسرائيلية التي استخدمتها منذ الانتفاضة الأولى في سنة ١٩٨٧،[٥١] فهي تسعى دائماً لتحقيق سيادتها من خلال جسد الميت/ة الفلسطيني/ة، ومن خلال ممارسة وأخذ الحق في القتل.[٥٢] وخوف العائلات على أجساد أبنائها/بناتها ما هو إلاّ تَجلّ لخوف المستعَمَر/ة على جسده/ها من أدوات المُستعمِر/ة الطبية العدلية.[٥٣]

> كان جثمانه بارداً. بعض الشهداء بدوا وكأنهم كانوا موضوعين في مكان ضيق. لم يكرّمهم الاحتلال حتى في الثلاجات التي حفظهم فيها.[٥٤]

لقد سلّمت إسرائيل بعض جثامين الشهداء المقدسيين، ممَّن وافقت عائلاتهم على شروط طقوس الدفن والعزاء التي حددها الاحتلال، والتي تشمل التسليم والدفن ليلاً وتحديد عدد المشاركين في الطقوس، فارضاً بنية طقوس موت: جنازة ودفن وعزاء، وهي طقوس تُغيّب الميت/ة عن الحيز والزمن الاجتماعي ـ السياسي، وتخفّف عن إسرائيل حِمْل مواجهة تقديس المجتمع لجسد الاستشهادي/ة وجنازته، فتقلل من ذاتيته/ها، وتأخذه/ها إلى منطقة أقرب إلى أن يكون/تكون شيئاً.

وهنا لا بد من طرح مفهوم "الذاتية المخففة" كنقيض لثنائية الذات والشيء، تلك الثنائية التي لا تلائم كوحدة تحليلية حال جسد الميت/ة الفلسطيني/ة المعتقل/ة ـ المحرر/ة.

> قُتل أحمد أبو شعبان واعتُقل جثمانه لمدة ١٢٤ يوماً في ثلاجة الأَسر الإسرائيلية. حين عاد لأحضان عائلته مجمداً، لم يَحظَ بجنازة شهيد على الطريقة الفلسطينية؛ لم تحظَ والدته بدور أم الشهيد. أحمد سُلّم في

> منتصف الليل حين كانت غالبية الناس تغطّ في نومها، تحضّر ليوم مقاومة جديد، أو تحلم بغد أفضل وحرّ. دُفن في الليل الحالك؛ حضر تشييعه ١٤ شخصاً بدلاً من ٥٠ كما كان متفقاً عليه مع السلطات الإسرائيلية؛ بدلاً من المئات كما هو متفق عليه في تشييع جثامين الشهداء الفلسطينيين. لم يُسمح لذويه بحضور تشييعه في مقبرة باب الأسباط، وطُوّقت المقبرة لمنع استراق النظر حتى من قِبَل محبّيه.[٥٥]

إذاً، عودة إسرائيل إلى تشكيل زمن ـ حيز موت الفلسطيني تتجلى في محاولتها تشكيل زمن ـ حيز الجثمان، وزمن ـ حيز طقوس موته.

> بعد استلامه، كانت ساقاه متقوستين إلى الأعلى. لم يكن هناك أي مجال لدفنه. تركناه ليذوب قليلاً... طالبنا بالجثمان لدفنه فقط. إكرام الميت دفنه.[٥٦]

في حالة احتجاز الجثامين، يتحول الميت من حامل هوية ذاتية إلى حامل هوية جماعية وجمعية، فالمجتمع لا يتكلم عنه باسمه أو بشخصه، وإنما كجزء من مجموعة ومجتمع جُمّد زمن موته، وجُمدت بَيْنيته. وقد رفضت عدة عائلات استلام جثمان ابنها بخلاف عائلات أُخرى، وتوحدت لترفض معاً شروط طقوس الدفن التي وضعتها إسرائيل، وصارت تتكلم عن جسد الميت الفلسطيني لا عن ابنها. باتت تنادي "حرّروا الجثامين"، وتتكلم عن "جسد الأمة" (nation body)، لا عن جسد فرد واحد منها.

في هذا الشأن، قال محمد عليّان والد الشهيد بهاء عليّان:

> عندما تسقط أول قطرة دم شهيد يصبح ملكاً للوطن وليس ملكاً لعائلته.

وقال بسام سدر والد الشهيد باسل سدر:

> إحنا مقتنعين إنو الشهيد مش ابننا من يوم ما صار شهيد، هوه ابن الشعب وملك الشعب وملك الناس.[٥٧]

لاحقاً، تحوّلت النداءات إلى "بدنا ولادنا"، وهذا دلالة على رغبة الأهالي في استعادة الذات الجمعية. حين يكون جسد الميت/ة في برادات المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة، فهو يكون تحت تصرفها وتصرف بيروقراطيتها، ويكون "مكشوفاً" لهذه القوى لتفعل به ما تشاء. إن وضع الجثامين في الثلاجات الضيقة، وإبقاءها على الوضعية الأخيرة التي كانت عليها، هما دلالة على تجميد الهوية الذاتية حتى لحظة الموت، وعلى تحويل الجسد والتعامل معه على أنه مادة منذ لحظة إعلان الموت. فالهوية لم تعد مهمة لإسرائيل، لأن هذا الجسد بالنسبة إليها هو جسد أمة لا جسد فرد؛ جسد فلسطيني لا يستحق الحياة أو الأسف على حياته/ها، أو الأسى على موته/ها.

مقاربات تحليلية أُخرى

ممّا لا شك فيه أن ثمة حاجة إلى إنتاج معرفة اجتماعية بديلة ووحدات تحليلية تختلف عن تلك المستخدمة في العلوم الاجتماعية الغربية بشأن الموت وبَيْنيته. فالسببية والخطية والإقصاء والاحتواء، وغير ذلك، لم تعد تتلاءم مع السياق الفلسطيني، وخصوصاً مع فعل اعتقال الجثمان الفلسطيني. هنا تُجمد البَيْنية وتصبح لولبية لا خطية، بَيْنية مزدوجة مجمدة، لكنها تتقدم مع مرور الأيام، وفيها تحولات وانتقالات تعيد الموت إلى بداياته كي يصل إلى نهاياته. عندما يموت الفلسطيني/ة بفعل إسرائيلي، فإنه يكون بداية معرّفاً تعريفاً شخصياً، وعندما يجري تعريف هويته الذاتية يتحول إلى حامل هوية جمعية للفلسطيني/ة، ويُحتجز جثمانه ليصبح في خانة جسد فلسطيني/ة يمكن نقش السيادة عليه بأدوات استعمارية. وحين يعاد الجثمان، تحدث السيرورة نفسها في الجانب الفلسطيني مع اختلاف المضامين: يتم تعريفه شخصياً والتعرف إلى هويته الذاتية، ثم ينضم إلى مجتمع الشهداء ليُعرَّف تعريفاً قومياً، ويتسنى للمجتمع نقش ممارساته القومية ـ الاجتماعية عليه كشهيد. وهذه المرحلة الأخيرة تخفّف حين تشترط إسرائيل على الفلسطينيين/ات طقوس تشييع محددة.

وتنبع ازدواجية بَيْنية الجسد من حقيقة أن المجتمع الفلسطيني ذاته واقع في حالة بَيْنية متواصلة، وفي حالة هجينية أيضاً. فمؤسسات دولة القومية قائمة، لكن في ظل غياب دولة بمفهومها الحداثي،٥٨ والمجتمع الفلسطيني يمر منذ بدء تشكله بعمليات مكثفة من التفكيك وإعادة التشكيل.٥٩

إن بَيْنية موت الاستشهادي/ة الذي/التي يُعتقل جثمانه/ها تتجاوز المعرفة الغربية، وتُنتج وحدات تحليلية مختلفة عمّا هو متعارف عليه. فمثلاً، يشير جان بودريار (Baudrillard 1993)٦٠ إلى أن إقصاء الميت جزء لا يتجزأ من "عقلانية" المجتمع الذي يرى في الميت شخصاً لم يعد له دور اجتماعي، ولم يعد كائناً أو شريكاً. صحيح أن إسرائيل ترى في جثمان الفلسطيني/ة موت الآخر، إلاّ إنه هنا له دور سياسي، وفي حالة احتجاز إسرائيل للجثامين، فإنها بهذا الأمر تُبعدها عن المجتمع وعنها بقبور الأرقام أو الثلاجات، وهكذا، يصبح إقصاء الميت/ة مزدوجاً. هذا الإبعاد القسري يرفضه المجتمع، وتنتج منه رغبة تتناقض تماماً مع كلام بودريلار، إذ يرغب المجتمع هنا في احتواء جسد الفلسطيني/ة الميت/ة، لا في إقصائه، ليقوم بدوره الاجتماعي السياسي كشهيد. يرغب المجتمع في احتوائه ليقوم هو بإقصائه على طريقته. وحتى حين تحاول إسرائيل ترتيب شكل هذا الإقصاء، فإن المجتمع يرفض ويقول لها أنه لن يتسلم الجثمان إلاّ إذا قام بإقصائه بطريقته وبالطقوس التي تليق بشهيد/ة. من هنا، فإن رغبة المجتمع في دفن الجثمان تتجاوز إكرامه لتكون تعبيراً عن الرغبة في تعريفه في حالة الاستقرار، وعن الرغبة في إعادته واحتوائه واستعادته من إسرائيل من أجل القيام بسيرورة الإقصاء والاحتواء الاجتماعية للشهيد/ة.

وتتجلى الازدواجية والدائرية/اللولبية أيضاً في حالة اعتقال جثمان الفلسطيني/ة، في كونه لا يحقق مسار العودة من الثقافة ـ المجتمع إلى الطبيعة ـ الأرض، كما في مسار

موت "عادي"،[61] وإنما يخرج من ثقافته إلى حيز ثقافة إسرائيلية، وحين يحرَّر يعود مرة أُخرى إلى ثقافته كي يتسنى له العودة إلى الطبيعة. وهذا المسار يمكن رؤية الازدواجية فيه أيضاً بالتجميد المزدوج، ويشير دون هاندلمان (Handelman 2006)[62] إلى حقيقة أن وجه الميت يتحول إلى قناع مجمد، وحين يكون هذا القناع مجمداً أيضاً بدرجة حرارة تصل إلى ٤٠، وأحياناً ٧٠ درجة تحت الصفر، يصبح هذا التجميد ثنائياً. إن رفض العائلات استلام جثامين أبنائها مجمدة هو رفض لتشييئها، والرغبة في الإذابة وانتظار الإذابة هو انتظار عودة الذات لتموت موتاً حقيقياً حياً وليس مجمداً، أي أن يموت مع ملامح ميت/ة حية تُمارس موتها كإنسان وليس كشيء جماد.

يتطرق جورجيو أغامبين (Agamben 1998)[63] إلى "قومنة" الجسد في أثناء وجوده داخل جدران المؤسسة، وبإمرة بيروقراطيتها، بحيث يتحول إلى "مكشوف" لممارسات السلطة. هنا موت الفلسطيني هو "موت مكشوف" تفعل به المؤسسة ما تشاء، كما أنها استخدمته وتستخدمه وسيلة للمقايضة والمبادلة، وهذه المقايضة هي جزء من المنطق الرأسمالي للاستعمار. يحلل إسماعيل ناشف (٢٠١٥) المنطق الرأسمالي في صناعة الموت في السياق الاستعماري، على قاعدة أن النظام الاستعماري جهاز مبني على العنف التفكيكي والإحلالي، وأن "هذه الطبيعة نابعة مباشرة من كونه اشتقاقاً للنظام الرأسمالي الأم وامتداداً له [....]، فصناعة الموت هي في لبّ صناعة البضاعة، وليست خارجة عنها و/أو عن منطقها، بل هي قاعدة انطلاق البنية الرأسمالية التي نراها تتحقق من خلال البضاعة"؛[64] من هنا فإن المنطق الرأسمالي في الحالة الاستعمارية الإسرائيلية يتجلى في تكديس الجثامين بهدف المقايضة والضغط، وهذا المنطق كان واضحاً في جملة أحد الضباط الإسرائيليين في تعليقه على احتجاز الجثامين الأخير بقوله: "مع الوقت بات هناك 'سوق جثامين'."[65]

من خلال فعل التجميد والدفن الموقت، تقوم إسرائيل بما سمّاه هومي بابا (Bhabha 1990) "وَسْم" (marking) الجسد بخطابها الاستعماري، وباستخدام القوة المباشرة على الجسد المادي.[66] وهذا أحد تجليات منطق إنتاجها للموت الفلسطيني، والذي رفضه الاستشهادي أولاً بخروجه من منطقة الضحية المفعول بها إلى منطقة الفاعل الذي "يدير شؤون موته".[67] وفي هذه السيرورة من وسم الجسد، يمر جسد الميت/ة بعمليات قراءة وكتابة، ففي كل محطة من سيرورته بين إعلان الموت والمثوى الأخير، أو خلال البقاء في المثوى الموقت، يمر بعمليات قراءة اجتماعية وسياسية، ويُشكَّل أيضاً بأدوات استعمارية، ويُكتَب ليكون نصاً سياسياً اجتماعياً يُعلن مَن هو السيد ومَن التابع/ة له.

ففي كتابه عن ممارسات الموت والتشريح في بلفاست، يشير ليندسي برايور[68] (Prior 1989) إلى أهمية معرفة وكلاء قراءة الجسد ووكلاء كتابته والنقش على جلده، فهؤلاء هم وكلاء الخطاب "المنقوش" على الأجساد. وهذه الوكالة في سياق اعتقال الجثامين متعددة بحسب موقع الجسد خلال سيرورة تنقلاته بعد إعلان موته. ■

المصادر

١ انظر: http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2015/12/01/823521.html

٢ ممّا لا شك فيه أن الحالة الاستعمارية تُنقش أيضاً على جسد المستعمِر/ة لا على جسد المستعمَر/ة، لكن التركيز في هذه الدراسة هو على المستعمَر/ة، وخصوصاً الفلسطيني/ة.

٣ Michel Foucault (1977), *Discipline and Punish: The Birth of the Prison* (New York: Pantheon).

٤ انظر على سبيل المثال:

Anupama Rao and Steven Pierce (2006), eds., *Discipline and the Other Body: Correction, Corporeality, Colonialism*, (Durham, North Carolina: Duke University Press); Mahmood Mamdani (2014), *When Victims Become Killers: Colonialism, Nativism, and the Genocide in Rwanda* (Princeton: Princeton University Press).

٥ Linda M. Pitcher (March 1998), " 'The Divine Impatience': Ritual, Narrative, and Symbolization in the Practice of Martyrdom in Palestine", *Medical Anthropology Quarterly*, vol. 12, issue 1, pp. 8-30.

٦ Julie Peteet (February 1994), "Male Gender and Rituals of Palestinian 'Intifada': A Cultural Politics of Violence", *American Ethnologist*, vol. 21, issue 1, pp. 31-49; Iris Jean-Klein (February 2001), "Nationalism and Resistance: The Two Faces of Everyday Activism in Palestine during the Intifada", *Cultural Anthropology*, vol. 16, issue 1, pp. 83-126.

٧ Achille Mbembe (Winter 2003), "Necropolitics", *Public Culture*, vol. 15, no. 1, pp. 11-40.

٨ Judith Butler (2004), *Precarious Life: The Powers of Mourning and Violence* (London; New York: Verso).

٩ Honaida Ghanim (2008), "Thanatopolitics: The Case of the Colonial Occupation in Palestine", in *Thinking Palestine*, edited by Ronit Lentin (London: Zed Books), pp. 65-81.

١٠ انظر على سبيل المثال: سهاد ظاهر ـ ناشف ونادرة شلهوب ـ كيفوركيان (خريف ٢٠١٥)، "الرغبات الجنسية في آلة الاستعمار الإسرائيلية الاستيطانية"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ١٠٤، ص ١٣١ ـ ١٤٧؛

Nadera Shalhoub-Kevorkian (2012), *Birthing in Occupied East Jerusalem: Palestinian Women's Experiences of Pregnancy and Delivery* (Jeruslaem: YWCA); Rhoda Ann Kanaaneh (2002), *Birthing the Nation: Strategies of Palestinian Women in Israel* (Berkeley: University of California Press).

١١ لعل البحث الإثنوغرافي الوحيد الذي وثّق سيرورة الميت الفلسطيني بين لحظة إعلان الموت، وبين المثوى الموقت له أو المثوى الأخير، هو أطروحة دكتوراه بالعبرية لسهاد ظاهر ـ ناشف (٢٠١١)، "عملية الإحياء السياسي والاجتماعي لجسد الفلسطيني الميت: حالة معهد الطب العدلي الفلسطيني" (القدس: الجامعة العبرية).
انظر أيضاً: سهاد ظاهر ـ ناشف ونادرة شلهوب ـ كيفوركيان (٢٠١٢)، "حياتية الموت والميت في المجتمع الفلسطيني: أن تموت في القدس"، في: "التهميش في المجتمعات العربية، كبحاً وإطلاقاً"، تحرير نجلاء حمادة ونهوند القادري وروز دباس (لبنان: تجمّع الباحثات اللبنانيات).

١٢ إسماعيل ناشف (٢٠١٥)، "صور موت الفلسطيني" (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات).

١٣ المصدر نفسه.

١٤ انظر http://www.jlac.ps/index.php?page=inside&pid=383&parentId=0&sectionid=8

١٥ حتى كتابة هذه الدراسة، فإن ١٥ جثماناً فلسطينياً ما زالت معتقلة لدى القوات الإسرائيلية.

١٦ انظر: "وكالة معاً الإخبارية"، في الرابط الإلكتروني التالي: maannews.net/Content.aspx?id=816209.
وفي ٢٠/١/٢٠١٤، صرّحت فاطمة عبد الكريم المنسقة الإعلامية للحملة الوطنية لإرجاع الجثامين أن ما هو موثّق لدى المؤسسات الفلسطينية هو ٢٨٨ شهيداً. انظر: http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/fa8d6ccd-183f-4c27-9f39-154fb1961792

١٧ http://www.jlac.ps/index.php?page=inside&pid=383&parentId=0&sectionid=8

١٨ انظر: http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2013/5/30

١٩ تستخدم إسرائيل عدداً من استراتيجيات الاستعمار التي تنتهج سلطات الاحتلال، وفقاً لها، ممارسات استعمارية مختلفة ومتغيرة بين فلسطينيي/ات الداخل، وفلسطينيي/ات الضفة الغربية، وفلسطينيي/ات قطاع غزة وفلسطينيي/ات القدس. وهذا التعدد يخلق حالة من عدم وضوح الاستعمار وعدم استقراره، وبالتالي عدم القدرة على توقّعه أو رؤيته بوضوح، كما أن تلك السياسة توجِد فجوات بين مختلف المجموعات الفلسطينية، والتي تتغلغل في الوعي على أساس فجوات تاريخية، لكنها سرعان ما تتحول إلى فجوات طبقية.

٢٠ http://www.jlac.ps/index.php?page=inside&pid=383&parentId=0&sectionid=8

٢١ Ibid.

٢٢ Arnold Van Gennep (1960), *The Rites of Passage*, translated by Monika B. Vizedom and Gabrielle L. Caffee (Chicago: The University of Chicago Press).

٢٣ Victor Turner (1969), *The Ritual Process: Structure and Anti-Structure* (New York: Cornell University Press).

٢٤ Ibid.

٢٥ Mary Douglas (1966), *Purity and Danger: An Analysis of the Concepts of Pollution and Taboo* (London and New York: Routledge).

٢٦ Julia Kristeva (1982), *Powers of Horror: An Essay on Abjection*, translated by Leon S. Roudiez (New York: Columbia University Press).

٢٧ Turner, op.cit.

٢٨ Ibid.

٢٩ ناشف، "صور موت الفلسطيني"، مصدر سبق ذكره.

٣٠ Judith Butler (November 1989), "Foucault and the Paradox of Bodily Inscriptions", *Journal of Philosophy*, vol. 86, no. 11, pp. 601-607.

٣١ Judith Butler (1993), *Bodies That Matter: On The Discursive Limits of "Sex"* (London and New York: Routledge).

٣٢ هذا ما أدلى به أشرف شاهين، شقيق محمد مصطفى شاهين من بلدة دورا الواقعة جنوب الضفة الغربية، معقّباً قبيل استرجاع جثمان شقيقه. انظر:
http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/78d126ee-e95b-48dc-9996-b6e294d7463f

٣٣ على الرغم من أن عدد هذه المقابر وأماكنها غير معروف، فإن بعض المصادر الصحافية الإسرائيلية والأجنبية كشف في الأعوام الأخيرة معلومات عن أربع مقابر أرقام، هي: مقبرة الأرقام المجاورة لجسر بنات يعقوب؛ مقبرة الأرقام الواقعة في المنطقة العسكرية المغلقة بين مدينة أريحا وجسر دامية في غور الأردن؛ مقبرة ريفيديم وتقع في غور الأردن؛ مقبرة شحيطة وتقع في قرية وادي الحمام شمالي مدينة طبرية، والواقعة تحديداً بين جبل أربيل وبحيرة طبرية. لمزيد من التفصيلات، انظر الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.makaberalarqam.ps/?page_id=2243

٣٤ هذا ما قالته والدة محمد فراونة، منفّذ عملية اختطاف الجندي الإسرائيلي غلعاد شاليط والمعتقل جثمانه منذ العملية في تاريخ ٢٠٠٦/٦/٢٥، في مقابلة صحافية لجريدة "السفير"، "ملحق فلسطين". انظر: http://palestine.assafir.com/Article.aspx?ArticleID=3438

٣٥ حاولت الجهات القانونية المتعددة مساعدة العائلات، فأطلق "مركز القدس للمساعدات القانونية وحقوق الإنسان" (رام الله) في آب/أغسطس ٢٠٠٨، "الحملة الوطنية لاسترداد جثامين الشهداء المحتجزة لدى الاحتلال الإسرائيلي"، بعدما جاء إلى مقر المركز والد مشهور العاروري طالباً مساعدتهم في استعادة جثة ابنه المحتجز منذ نهاية السبعينيات في مقابر الأرقام.

٣٦ http://palestine.assafir.com/Article.aspx?ChannelID=106&ArticleID=3438

٣٧ المصدر نفسه.
٣٨ http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/d2fb88d3-3f33-4647-9f9d-c2bace968909
٣٩ المصدر نفسه.
٤٠ Butler, Precarious Life..., op.cit.
٤١ هكذا عبّر والد طارق دوفش الذي قُتل واختُطف جثمانه واعتُقل في سنة ٢٠٠٢، عن رغبته في استعادة رفات ابنه. انظر: http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2013/5/30
٤٢ أمّ الشهيد رائد، المعتقل جثمانه منذ ١٣ عاماً. انظر الرابط الإلكتروني التالي: http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/d2fb88d3-3f33-4647-9f9d-c2bace968909
٤٣ شهادة أحد الإخوة، والتي أدلى بها في إطار بحث يوثق تجربة العائلات التي استلمت جثامين أبنائها وبناتها، والذي قامت به كاتبة هذه الدراسة في آذار/مارس ٢٠١٦.
٤٤ حتى تاريخ كتابة هذه المقالة في ٢٠١٦/٤/١٣.
٤٥ انظر تقرير "وكالة وطن للأنباء"، في الرابط الإلكتروني التالي: http://www.wattan.tv/news/167416.html
٤٦ انظر: http://www.wattan.tv/news/167406.html
٤٧ شهادة أحد الأطباء المعاينين لجثامين الشهداء. انظر: http://felesteen.ps/details/news/156535/
٤٨ هذا ما قاله د. عبد الله أبو هلال، مدير مركز أبو ديس الطبي والذي عاين جثمانَي فلسطينيَّين بعد تسليمهما عند حديثه عن جثمان مازن حسن عربية الذي احتُجز لثلاثة أسابيع في ثلاجات إسرائيل. انظر: المصدر نفسه.
٤٩ http://www.npr.org/sections/parallels/2016/01/05/462037563/israels-return-of-palestinian-bodies-is-fraught-with-emotion-and-politics
٥٠ هذا ما قاله والد الشهيد بهاء عليّان. انظر: http://felesteen.ps/details/news/156535
٥١ انظر في هذا الصدد:
Meira Weiss (2014), *Over Their Dead Bodies: Power, Knowledge, and the Institute of Forensic Medicine in Israel* (Tel-Aviv: Resling Books), (Hebrew).
٥٢ لمزيد من التفصيلات بشأن منطق تحصيل السيادة من خلال احتكار الحق في منح الحياة أو سلبها، انظر: Mbembe, op.cit.
٥٣ Frantz Fanon (1978), "Medicine and Colonialism", in *The Cultural Crisis in Modern Medicine*, edited by John Ehrenreich (New York: Monthly Review Press), pp. 229-251.
٥٤ هذا ما قاله بسام سدر والد باسل سدر (٢٠ عاماً) من مدينة الخليل، قبل مراسم دفن ابنه مع ١٣ جثماناً أعادتها إسرائيل في الخليل. لقد بقي جثمان باسل أكثر من ٨٠ يوماً معتقلاً في الثلاجات الإسرائيلية. انظر: http://felesteen.ps/details/news/156535

٥٥ أوردت الكاتبة هذه القصة بتصرف. انظر القصة كما وردت في موقع "المركز الفلسطيني للإعلام" في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.palinfo.com/news/2016/2/15

٥٦ هذا ما قاله سعد صلاح عن جثمان أخيه بسيم صلاح من مدينة نابلس. انظر:
http://felesteen.ps/details/news/156535

٥٧ هكذا قال في مقابلة أُجريت معه آذار/مارس ٢٠١٦. وهذه المقابلة هي ضمن بحث تقوم به كاتبة هذه الدراسة، والذي من خلاله توثق شهادات وتجربة العائلات من الخليل التي استلمت جثامين أبنائها وبناتها بعد الاعتقال في الثلاجات منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥.

٥٨ جميل هلال (١٩٩٨)، "النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو: دراسة تحليلية نقدية" (بيروت ورام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ومواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية).

٥٩ ناشف، "صور موت الفلسطيني"، مصدر سبق ذكره.

٦٠ Jean Baudrillard (1993), *Symbolic Exchange and Death*, translated by Iain Hamilton Grant (Thousand Oaks, California: Sage Publications).

٦١ تتطرق الكتابات في العلوم الاجتماعية إلى مسار الخروج من الطبيعة إلى الثقافة في أثناء الولادة، ومسار العودة من الثقافة إلى الطبيعة في أثناء الموت.

٦٢ Don Handelman (2006), "Death and the Mask", in *Masked Ritual and Performance in South India: Dance, Healing, and Possession*, edited by David Dean Shulman and Deborah Thiagarajan (Ann Arbor, Michigan: University of Michigan, Center for South Asian Studies).

٦٣ Giorgio Agamben (1998), *Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life*, translated by Daniel Heller-Roazen (Stanford: Stanford University Press).

٦٤ ناشف، "صور موت الفلسطيني"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.

٦٥ انظر:
http://www.npr.org/sections/parallels/2016/01/05/462037563/israels-return-of-palestinian-bodies-is-fraught-with-emotion-and-politics

٦٦ Homi K. Bhabha (1990), "The Other Question: Difference, Discrimination and the Discourse of Colonialism", in *Out There: Marginalization and Contemporary Cultures*, edited by Russell Ferguson, Martha Gever, Trinh T. Minh-ha, and Cornel West (Cambidge, Massachusetts: MIT Press).

٦٧ عن ثلاثية الضحية والشهيد والاستشهادي، وعن إعادة إنتاج الموت الفلسطيني، انظر: ناشف، "صور موت الفلسطيني"، مصدر سبق ذكره.

٦٨ Lindsay Prior (1989), *The Social Organization of Death: Medical Discourse and Social Practices in Belfast* (New York: St. Martin's Press).